

فلسفة التغيير بين مالك بن نبي ومحمد إقبال

Philosophy of Change: Between Malek Bennabi and Muhammad Iqbal

محمد بورويينة¹¹ جامعة ابن خلدون (تيارت)،

mohamed.bouirouina@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2026/11/12 تاريخ القبول: 2026/04/27 تاريخ النشر: 2026/06/01

ملخص:

يتناول هذا البحث فلسفة التغيير عند كلٍّ من محمد إقبال ومالك بن نبي بوصفها مشروعاً نهضوياً يسعى إلى تجاوز حالة الجمود الحضاري في العالم الإسلامي. يهدف إلى تحليل مقارباتهما في تشخيص أزمة الإنسان المسلم، من حيث علاقتها بالذات، والفكر، والدين، والمجتمع، مع إبراز نقاط الالتقاء والاختلاف بينهما في تصور التغيير كعملية روحية وعقلية متكاملة. اعتمد البحث منهجاً تحليلياً مقارنةً لاستكشاف الأسس الفلسفية التي جعلت من التغيير محورياً مركزياً في فكرهما الإصلاحي.

وقد خلصت الدراسة إلى أن إقبال ركّز على بعث الذات المؤمنة الفاعلة باعتبارها جوهر النهضة، في حين جعل بن نبي من إصلاح الإنسان والفكرة أساساً لبناء الحضارة. واتفق المفكران على أن التغيير لا يتحقق بالعوامل المادية وحدها، بل يبدأ من ثورة فكرية وروحية تعيد للإنسان وعيه برسائلته في الوجود ودوره في صناعة التاريخ. كلمات مفتاحية: فلسفة التغيير، محمد إقبال، مالك بن نبي، الذات (الخُودي)، النهضة الحضارية، الإيمان والعمل، القابلية للاستعمار، الإصلاح الروحي والاجتماعي

Abstract:

This study explores the philosophy of change in the thought of Muhammad Iqbal and Malik Bennabi as a civilizational project aimed at overcoming the stagnation of the Muslim world. It analyzes their approaches to diagnosing the crisis of the Muslim individual in relation to self, thought, religion, and society, highlighting both convergences and divergences in their understanding of change as an integrated spiritual and intellectual process. Employing a comparative analytical method, the research examines the philosophical foundations that made change a central axis in their reformist visions. The study concludes that Iqbal emphasized the revival of the active, believing self as the essence of renewal, while Bennabi focused on reforming both man and idea as the basis of civilization. Both thinkers agreed that genuine transformation cannot be achieved through material means alone but must begin with a spiritual and intellectual awakening restoring human awareness of purpose and historical responsibility

Keywords:. Philosophy of Change-Muhammad Iqbal- Malek Bennabi -Selfhood (Khudi) - Civilizational Renewal -Faith and Action -Colonizability -Spiritual and Social Reform.

*المؤلف المرسل: محمد بورويينة

1. مقدمة

تُعدّ إشكالية التغيير من أبرز القضايا الفلسفية التي شغلت الفكر الإسلامي الحديث، لما تمثله من سؤال مصيري يتعلّق بقدرة الإنسان المسلم على تجاوز واقعه المتخلّف واستعادة فاعليته الحضارية. فبعد قرون من الجمود والانحطاط، برزت الحاجة إلى إعادة التفكير في شروط النهضة وسبل بعث الوعي الإنساني، وهو ما جعل قضية التغيير محوراً لمشاريع فكرية متعدّدة، لعلّ أهمها ما قدّمه كلّ من محمد إقبال ومالك بن نبي، اللذين قدّما رؤيتين فلسفيتين متكاملتين للتجديد الديني والحضاري؛ إذ انطلق إقبال من البعد الروحي والأخلاقي للإنسان المؤمن بوصفه الفاعل في التاريخ، في حين ركّز بن نبي على البعد الاجتماعي والحضاري، معتبراً أنّ التغيير الحقيقي يبدأ من إصلاح الفكرة والإنسان معاً.

تتمثّل الإشكالية الأساسية التي يسعى هذا البحث إلى معالجتها في السؤال المركزي الآتي: كيف تناول كلّ من محمد إقبال ومالك بن نبي فلسفة التغيير؟ وما أوجه الاتفاق والاختلاف بين رؤيتهما في تشخيص أزمة الإنسان المسلم وسبل تجاوزها؟

وانطلاقاً من هذه الإشكالية، يُمكن صياغة الفرضيات الآتية:

1. يرى محمد إقبال أنّ التغيير يبدأ من بعث الروح الإيمانية في الذات الإنسانية بوصفها نواة التغيير الاجتماعي.
2. بينما يؤكد مالك بن نبي أنّ النهضة لا تتحقّق إلا بإصلاح الفكر وبناء شبكة من القيم الفاعلة التي توجّه الإنسان نحو العمل والإنتاج.
3. تتكامل الرؤيتان في اعتبار التغيير مساراً أخلاقياً وفكرياً يتجاوز الفرد ليشمل المجتمع والحضارة بأكملها.

أمّا أهداف البحث فتتمثّل في:

أ- تحليل الأسس الفلسفية التي بنى عليها كلّ من إقبال وبن نبي تصوّرهما للتغيير.

ب- الكشف عن نقاط الالتقاء والافتراق بين المشروعين في مقاربة أزمة الحضارة الإسلامية.

ج- إبراز أهمية التوفيق بين البعدين الروحي والاجتماعي في أي مشروع نهضوي معاصر.

ويعتمد البحث في منهجيته على المنهج التحليلي المقارن، الذي يقوم على تحليل النصوص الفلسفية الأساسية لدى المفكرين، ومقارنة مفاهيمهما في ضوء سياقاتهما الفكرية والتاريخية، للوصول إلى رؤية نقدية تبرز جدلية التفاعل بين الفكرين الروحي والاجتماعي في فلسفة التغيير الإسلامي المعاصر.

أولاً: فلسفة التغيير عند محمد إقبال

يُعتبر محمد إقبال (1877-1938م) من أوائل المفكرين الذين أعادوا صياغة الفكر الإسلامي بروح فلسفية حديثة، مزاجاً بين الفكر الغربي النقدي والروحانية الإسلامية. فقد تأثر بفلسفة كانط في نظريته للعقل كأداة

نقدية، وبنيتشه في دعوته إلى الإنسان القوي الخلاق، لكنه أعاد توجيه هذه القوة ضمن إطار إيماني وأخلاقي. وانطلاقاً من رؤيته التوحيدية للوجود، يرى إقبال أن الدين ليس جموداً بل حركة مستمرة، فالإسلام في جوهره دعوة إلى الفعل، لا إلى الجمود، والتاريخ لا يصنعه القدر، بل يصنعه الإنسان المؤمن الذي يعيد اكتشاف ذاته وواجبه في الكون، فالمؤمن الحقيقي عنده لا ينتظر التغيير من الخارج، بل يفعل طاقاته الروحية والعقلية ليكون شريكاً في خلق المستقبل. (محمد، 1968)

كما يعبر إقبال عن هذا البعد الإبداعي من خلال مفهومه لـ"الأنا الخلافة"، الذي يميّزه عن "الأنا المتلقية" في الفلسفة الغربية، إذ إن الأنا عنده ليست معزولة بل فاعلة في العالم، تسعى إلى تحقيق ذاتها في خدمة القيم العليا، لأن "الغاية من الحياة ليست الهروب من الواقع، بل السيطرة عليه وتوجيهه" (إقبال، ضرب الكلية، 1958)

كما وجد إقبال في التصوف الإسلامي، خصوصاً عند ابن عربي وجلال الدين الرومي، بعداً روحياً عميقاً يغذي رؤيته للإنسان والكون. لكنه رفض التصوف السلبي القائم على الانسحاب من الواقع، داعياً إلى تصوف فعّال يجعل الروح في خدمة الفعل الحضاري. يقول في هذا السياق: 'إنّ الإنسان الكامل ليس من يفرّ من العالم، بل من يغيّر العالم بنور قلبه وعمله' (إقبال، اسرار الذات، 1955) لقد رأى في الرومي المعلم الذي علّمه كيف يوحد بين الحب والفكر، بين العشق والعمل، فكتب يقول: "وجدت في مولانا الرومي ناراً من الحب تُنير العقل وتُحرّك الإرادة" (إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، 1968). فالعشق عنده ليس انفعالاً وجدانياً، بل قوة كونية خلاقة تدفع الإنسان إلى التجلّي بالفعل والإبداع، لا بالانكفاء والفرار من الواقع.

أما في تأثره بابن عربي، فقد أعاد إقبال تأويل مفهوم وحدة الوجود ليصبح وحدة الفعل والخلق، فالله عنده ليس فكرة جامدة بل "حضور دائم في حركة الوجود، يُلهم الإنسان أن يكون مبدعاً لا مقلداً" (إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، 1968) بذلك صاغ فلسفة روحية جديدة تقوم على التوازن بين القلب والعقل، حيث يكون الإيمان منبعاً للحرية لا للاستسلام، ومصدراً للنهضة لا للركود.

يتضح مما سبق أن أزمة المسلمين في رأي إقبال ليست في الدين نفسه، بل في فهمهم الجامد له، فالانحطاط سببه فقدان روح الاجتهاد والإبداع، وتحول الدين إلى طقوس شكلية خالية من الحيوية

ينطلق إقبال من مفهوم الذات (الخودي) الذي جعله محور فلسفته. فالإنسان عنده كائن حرّ مبدع، مكلف ببناء ذاته من خلال الإيمان والعمل والجهاد.

يقول إقبال في كتابه *تجديد التفكير الديني في الإسلام*: "ليس الإيمان استسلاماً سلبياً، بل هو فعلٌ خلاق يهب الإنسان القدرة على أن يكون سيد مصيره". *Source spécifiée non valide.*

إذن، التغيير عند إقبال يبدأ من إحياء الذات الفردية التي تمثل نواة التغيير الاجتماعي. كما يربط بين الإيمان والحركة، فالإسلام في جوهره دعوة إلى الفعل، لا إلى الجمود. والتاريخ في نظره لا يصنعه القدر، بل يصنعه الإنسان المؤمن الذي يعيد اكتشاف ذاته وواجبه في الكون. وهنا يؤكد أن الإسلام دين حركة

وفعل، لا استسلام وسكون، وأن الإنسان المؤمن هو صانع التاريخ بإرادته وإبداعه، لا ضحية للقدر، لأن الإيمان عند إقبال يعني الوعي بالمسؤولية والقدرة على التغيير.

محمد إقبال، في فلسفته حول التغيير، طرح مجموعة من الإشكالات العميقة المرتبطة بواقع الإنسان المسلم، وبكيفية بعث روح النهضة بعد عصور من الجمود والتقليد. من أبرز هذه الإشكالات

1- إشكالية الجمود الفكري والديني: محمد إقبال طرح سؤالاً جوهرياً حول انطفاء روح الاجتهاد والإبداع في الأمة الإسلامية، متسائلاً عن كيفية تحول الدين من كونه قوة محركة للحياة إلى منظومة جامدة تُرسخ التقليد والجمود الفكري. فقد رأى إقبال أن السبب يكمن في الانفصال الذي حدث بين الدين والفكر، وبين الروح والعقل، ما أدى إلى توقف حركة الاجتهاد التي هي جوهر الدين الإسلامي الديناميكي والخلاق. إقبال اعتبر أن الدين لا يتناقض مع العقل بل هو في جوهره دعوة مستمرة للتفكير والبحث وتطوير المعرفة من أجل تحقيق المثل العليا، وبالتالي فإن الجمود الذي أصاب الأمة الإسلامية هو نتيجة لعزل العلماء عن روح الدين الحية وتحويلهم الشريعة إلى مجموعة من القواعد الجامدة التي تعيق حرية التفكير والتجديد. (سليمة، 2025)

في تصور إقبال الاجتهاد المطلق هو الذي يجب أن يعود للحياة الإسلامية، وهو الاجتهاد الذي يملك القدرة على إعادة تفسير الشريعة بما يتلاءم مع تغيرات الزمن والظروف الاجتماعية. الإبداع والاجتهاد ليسا مجرد حقوق نظرية، بل هما واجبان على الأمة لجعل الدين أداة تجديد مستمرة لا تتوقف عند نصوص الماضي الجامدة، بل تسعى لاستنباط الأسس التي تسمح بتفاعل الدين مع الفلسفة والعلوم الحديثة، مما يجعل الإسلام مرناً وقادراً على مواجهة المستجدات العالمية. الجمود الفكري بحسب إقبال هو السبب في تمكن التقليد الذي يخنق الحياة ويقتل الإبداع، في حين أن فتح أبواب الاجتهاد وتجديد الفهم الديني يدفع الأمة نحو النهضة الحقيقية والتقدم الحضاري.

إقبال يؤكد أن استعادة الدين لدوره الحقيقي كقوة حياة وروح مبدعة تتطلب تجاوز الحواجز بين الروح والعقل، بين النص وتجربة الإنسان، وذلك باستثمار الجوانب الروحية وليس فقط التقيد الظاهري بالشريعة، لأن الروح الإبداعية هي المحرك الذاتي للنهضة والتغيير في الأمة. لذا، فإن فلسفة إقبال في هذا المجال تنطلق من تصور الدين ككائن حي متحرك يتفاعل مع الواقع ويتطور بفعل الاجتهاد على عكس الجمود والاستقرار الذي يعطل الحركة الاجتماعية والفكرية.

2- إشكالية العلاقة بين الذات والقدر: طرح محمد إقبال إشكالية فلسفية مركزية تتعلق بالعلاقة بين الذات والقدر، متسائلاً هل الإنسان حر في صنع مصيره أم محكوم بالقدر؟ في فلسفته، قدم إقبال مفهوم "الخودي" (الذات الفاعلة) كقوة إبداعية قائمة على الحرية الكاملة والمسؤولية الفردية، حيث ينزع الإنسان نحو تحقيق ذاته من خلال الفعل والاختيار الواعي، لا الاستسلام لقوى خارجية تحدد مصيره. يرى إقبال أن الإيمان الحق ليس مجرد قناعة تقليدية أو قبول أعمى للقدر، بل هو دافع نفسي وروحي يحث الإنسان على الخلق والعمل، إذ إن الروح المؤمنة تنخرط في صراع دائم لتجاوز القيود وتحقيق التغيير.

في تفسير إقبال، القدر ليس قيداً جامداً يوقف حركة الإنسان، بل هو إطار يفرض ظروفاً موضوعية لكنها لا تلغي فروض الاختيار الحر، فالإرادة والذات تبقيان فاعلتين في تشكيل الواقع ومواجهة ما يلقيه القدر من تحديات.

لهذا يرى أن الاستسلام للقدر معناه تخلي الإنسان عن دوره الفاعل، وهو موقف مرفوض فلسفياً وروحياً عنده. الذات الخودية تمثل قدرة الإنسان على التجدد الذاتي، والاستقلال الأخلاقي، والتجاوز الإبداعي للواقع من خلال الجهاد النفسي والروحي. (إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، 1968)

بالتالي فإن التفاعل الجدلي بين الذات والقدر في فلسفة إقبال يمارس فيه الإنسان حرية فعلية ويمارس مسؤولية أخلاقية تجعله شريكاً في صنع مصيره لا عبداً لحتميات مسبقة. وهذا المفهوم يشكل نقداً فلسفياً عميقاً للجبرية ويطرح رؤية جديدة متجددة عن الحرية في الفكر الإسلامي، حيث يقيم إقبال توازناً بين القبول الإيماني بالقدر والتمرد الحر على أوجه الجبر، مما يجعل الإنسان، في جوهر الفكر الإقبالي، قوة فاعلة ومبدعة في التاريخ.

3- إشكالية التوفيق بين الروح والعقل: محمد إقبال رصد انقساماً جوهرياً في الفكرين الفلسفيين الإسلامي والغربي، حيث ميّز بين الفلسفة الإسلامية ذات الطابع الروحاني الصرف، التي تركز على البعد الروحي والتجربة الدينية، والفلسفة الغربية التي تتسم بالمادية الصرفة وسلطتها للعقل التجريبي والمنهجي. واعتبر أن هذا الانفصال أدى إلى قصور في كليهما، إذ انغزلت الروحانية الإسلامية عن التطبيق الواقعي، فيما ابتعد العقل الغربي عن البعد الروحي والقيم الأخلاقية. إقبال "لا يفصل بين الدين والفكر، بل يرى في اتحادهما شرطاً لتجديد الحضارة وبناء الذات الفاعلة" (العربي، محمد إقبال: فكره الديني والفلسفي، 1999). ومنه سعى إقبال إلى بناء توازن فلسفي يجمع بين الروح والعقل، بحيث يصبح الإيمان مصدراً للقوة الدافعة نحو الفعل والتجديد، في حين يكون العقل الوسيلة التي تطور أسباب ووسائل الحياة العملية والاجتماعية.

هذا التوازن عند إقبال يشكل ركيزة في فلسفته التجديدية، إذ يرفض أن يُنظر إلى الدين بوصفه موقفاً انفصالياً عن التفكير العقلاني، كما يرفض أن يكون العقل وسيلة استعلائية على الروح. بدلاً من ذلك، يرى أن الإيمان يعطي الفعل معناه العميق ودوافعه الحقيقية، بينما العقل يزوده بالأدوات لتحويل التجربة الروحية إلى واقع متجدد يواكب تحولات الحياة. وبذلك، يجمع إقبال بين الأصالة الإسلامية في الاهتمام بالروح والإيمان، والانفتاح على الحداثة من خلال عقل يتعامل بمنهجية نقدية وتجدد مستمر.

هذا الموقف الفلسفي يحاول تجاوز الاستقطاب الحاد بين غلو روحانيات الدين وضعف العقل، أو سيطرة العقلانية المنافية للروح، ويقترح رؤية متكاملة تجمع بين البعدين، مما يجعل الدين العقلاني قوة للتجديد الاجتماعي والفردية، والحرية الحققة تأتي من هذا التوازن. كما أن فلسفة إقبال تبشّر بفاعلية الفعل الإنساني حين تنسجم الروح مع العقل، ليصبح الإنسان قادراً على المساهمة الإيجابية في صياغة واقعه ومستقبله.

4- إشكالية العلاقة بين التراث والحداثة: محمد إقبال تداول سؤالاً فلسفياً محورياً ومصيراً يتعلق بكيفية استفادة المسلم من منجزات الحضارة الغربية دون أن يتخلى عن هويته الإسلامية الأصيلة. وكان رؤيته واضحة في ضرورة "بعث روح الإسلام في ثوب جديد"، أي إعادة تفسير وفهم النصوص الدينية بعقلية العصر، بحيث لا يتم التفريط في أصالة الدين وجوهره، لكن النصوص تُقرأ وتُفسر بطريقة تحقق التفاعل والتجديد لا الجمود والتقليد. إقبال يرى أن هذا الأمر ضروري لأن النصوص الدينية ليست ثابتة جامدة بحد ذاتها، بل هي

تجارب روحية وقيمية يجب أن تُقرأ في سياق الحاضر مع احترام الثوابت. (العربي، محمد إقبال: فكره الديني والفلسفي، 1999)

هذا المسعى يتطلب رؤية فلسفية تجمع بين التعقل والإيمان، بحيث يتحول الدين إلى مصدر قوة فاعلة في حياة الإنسان المعاصر، ويصبح العقل وسيلة لفهم الواقع وتحسينه عبر أدوات معرفية حديثة، لا أن يتحول إلى عدو للدين أو أن يكون الدين مجرد تقليد ميت بلا روح. وبهذا، تقع فلسفة إقبال في موقع وسط يوازن بين الأصالة والتجديد، التمسك بالثوابت والمرونة في التعامل مع المتغيرات الاجتماعية والفكرية، وهو ما يجعله داعية إلى نهضة فكرية وثقافية تسمح بإعادة اكتشاف الإسلام بروح العصر دون نقض أنفس المبادئ.

إن إعادة قراءة النصوص بعقلية العصر كما طالب بها إقبال، تهدف إلى جعل الدين في خدمة الإنسان والوعي الإنساني، فتدفعه إلى الفعل وليس إلى الجمود، وإلى الإبداع لا الركون للتقليد، محققة التوازن بين الروح والعقل، وبين التراث والمعاصرة بما يحقق نهضة حضارية حقيقية للمجتمعات الإسلامية.

5- إشكالية الغاية من التغيير محمد إقبال يرى أن التغيير ليس هدفاً بحد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق غاية عليا ذات أبعاد أخلاقية وروحية. فالتغيير، في فلسفته، ينبغي أن يهدف إلى بناء الإنسان المؤمن الفاعل، الذي يتحلى بالوعي الذاتي والمسؤولية تجاه رسالته في الأرض، متجسداً في مفهوم الاستخلاف الإلهي. هذا الإنسان لا يكتفي بالتكيف مع الظروف المتغيرة، بل يسعى إلى تنمية ذاته الروحية والأخلاقية ليصبح قوة فاعلة في صنع تاريخها ومواجهة التحديات الحضارية.

إقبال وضع في مقدمة أهمية التغيير ضرورة تنمية الذات "الخودي" التي تعبر عن النشاط الإبداعي والحرية الحقيقية، والتي بدورها ترتبط بعمق بالإيمان الذي يدفع الإنسان إلى حمل رسالة تجديد المجتمع والبشرية. لذلك يركز التغيير عند إقبال على صيرورة روحية وأخلاقية أكثر من كونه مجرد تغيير شكلي أو مادي. فالغاية من التغيير هي تحديث الإنسان الذي يحمل في جوهره الإرادة الحرة المستمدة من الإيمان، ما يمكنه من القيام بدوره كخليفة على الأرض بحرية ومسؤولية.

هذا يعني أن التغيير يتصل بحركة الروح الإنسانية نحو الكمال، حيث الإيمان يتجاوز كونه قضية نظرية إلى تحقيق تجريبي وبنوي لإصلاح الذات والمجتمع، ويصبح التغيير أداة لتحقيق قيم الحق، الخير، والجمال التي هي من صميم الدين الإسلامي. وبناء على ذلك، فالتغيير في فكر إقبال هو تجديد أخلاقي وروحي، يتجلى في صياغة الإنسان المؤمن القادر على تحويل واقع الحياة بما يخدم رسالة الاستخلاف والنهضة الحضارية. (العربي، محمد إقبال: فكره الديني والفلسفي، 1999)

6- إشكالية انهيار النموذج الحضاري الإسلامي: تساءل محمد إقبال عن أسباب سقوط الحضارة الإسلامية رغم عمق قيمها وعظمتها الأخلاقية، فتوصل إلى أن السبب الرئيسي يكمن في فقدان الأمة "الوعي بالذات"، أي غياب الإدراك العميق للذات الفردية والجماعية وإهمال تنمية قوة الاجتهاد والإبداع. يرى إقبال أن الأمة توقفت عند مرحلة النقل الحرفي والتقليد البارد للنصوص والقيم دون أن تضيف عليها أو تجددتها تبعاً لظروف العصر،

مما أدى إلى جمود فكرها وضعف قدرتها على مواجهة تحديات الزمان. هذا الجمود الفكري والأخلاقي هو الذي أفقد الأمة حيويتها الحضارية ودفعها نحو السقوط، رغم أن جوهر الدين وقيمه قائم على التجديد والإبداع.

لذلك دعا إقبال إلى نهضة روحية وفكرية شاملة، تقوم على استعادة الوعي بالذات الذي يعيد للفرد وأمتة حيويتهم وإمكاناتهم الإبداعية، عبر تنمية الروح والذات في إطار إيماني يسمح بإحياء قدرة الاجتهاد والابتكار في شتى مجالات الحياة. هذه النهضة تتطلب تجاوز الجمود الفكري، وإعادة قراءة النصوص الدينية بعقلية متجددة، وعيش القيم الإسلامية بصيغ جديدة تلائم تطورات العصر. الفكرة المحورية هي تحقيق انسجام بين حفظ الأصالة والانفتاح على التجديد، بحيث تستعيد الحضارة الإسلامية موقعها الرائد على مستوى الفكر والعمل والممارسة الاجتماعية والسياسية.

وبهذا يكون انبعاث الحضارة مرتبطاً بعودة الإنسان المؤمن الفاعل الواعي الذي يحمل شعلتها، ويُعيد بناء المجتمع بنظرة روحانية عقلانية تجمع بين التجدد والتمسك بالمسلمات الأخلاقية، وهذا الوعي بالذات يمثل هوية الأمة الحقيقية وجوهر قوتها، كما يؤسسه إقبال في فلسفته الإصلاحية. (العربي، محمد إقبال : فكره الديني والفلسفي، 1999)

فلسفة التغيير عند مالك بن نبي

يُعدّ مالك بن نبي (1905-1973م) من أبرز المفكرين الذين تناولوا مسألة التغيير في الفكر الإسلامي الحديث بمنهج تحليلي حضاري يجمع بين الرؤية الفلسفية والوعي الاجتماعي. فقد انطلق من تشخيصه لما أسماه قانون دورة الحضارة، الذي يرى فيه أن كل حضارة تمر بثلاث مراحل أساسية: الإنسان، التراب، والوقت. وهي العناصر التي لا يمكن أن تنتج فعلاً حضارياً إلا عندما ترتبط ضمن منظومة قيم فاعلة وموجهة، فالحضارة في نظره، ليست مجرد تراكم مادي، بل هي نتاج تفاعل ديناميكي بين الإنسان والبيئة والزمن. Source spécifiée non valide. وهذا التفاعل لا يكتسب معناه إلا من خلال منظومة فكرية وأخلاقية تُضفي عليه غاية ووجهة. وعندما تفقد الأمة هذه الفعالية القيمية، ينكسر الرابط بين عناصر الحضارة الثلاثة، فتدخل مرحلة الجمود والانحطاط. لذلك يرى بن نبي أن التغيير الحقيقي لا يتم إلا بإعادة بناء علاقة الإنسان بهذه العناصر الثلاثة على أساس من القيم المنتجة والفاعلة. فازمة المسلم المعاصر ليست أزمة دين، بل أزمة فكر وأخلاق، عبّر عنها بمفهومه الشهير "القابلية للاستعمار"، أي "ذلك الاستعداد النفسي والعقلي للتبعية، الناتج عن فقدان الفعالية الحضارية وانطفاء الإرادة الإبداعية". Source spécifiée non valide. فالاستعمار الخارجي، في رأيه، ما كان ليُسيطر لولا وجود فراغ داخلي في البنية النفسية والفكرية للمجتمع المسلم.

وهنا يؤكد بن نبي أن الفكرة هي المحرك المركزي للتاريخ، لأنها تمنح الإنسان والمجتمع اتجاهاً ومعنى، إذ يقول:

"كل مجتمع لا يملك فكرة تُوجّه طاقته يصبح عاجزاً عن الفعل الحضاري". Source spécifiée non valide.

هذا القول يلخّص جوهر فلسفته في التغيير، فغياب "الفكرة الموجهة" يجعل طاقات الأمة مبعثرة، غير قادرة على التحول إلى قوة منتجة. ومن هنا، فمشروع النهضة عنده لا يتحقق بالوعظ أو بالسياسة وحدها، بل بإحداث

ثورة فكرية وروحية في الإنسان المسلم، تعيد بناء شبكة العلاقات الاجتماعية على أساس الفاعلية والتكامل، وتستعيد الفكرة الدافعة التي تشحن المجتمع بطاقة الإيمان والعمل.

إن التغيير عند بن نبي مشروع شامل يبدأ من الإنسان بوصفه محور التاريخ وفاعله الأول، وينتهي ببناء حضارة متوازنة بين الروح والمادة، الفكر والعمل. فالحضارة لا تُستورد ولا تُقلد، بل تُبنى من الداخل، من خلال إصلاح الوعي وتحرير الإرادة واستعادة القيم التي تصنع الإنسان القادر على الإبداع والإنتاج. وفي هذا الإطار يؤكد بن نبي أن "النهضة لا تُقاس بما نملك من وسائل، بل بما نملكه من أفكار". *Source spécifiée non valide*. فالتغيير عنده ليس شعاراً خطابياً، بل فلسفة وجودية ترى أن الحضارة تبدأ من فكرة في ذهن إنسان، تتحول إلى سلوك في مجتمع، ثم إلى بناء في التاريخ.

مالك بن نبي من أعمق المفكرين الذين حللوا مشكلة التغيير في واقع الأمة الإسلامية بطريقة عقلانية ومنهجية دقيقة. تمحورت فلسفته كيفية الانتقال من حالة القابلية للاستعمار إلى حالة القابلية للحضارة ". اهم الإشكالات التي طرحها في فلسفته للتغيير هي:

1- إشكالية القابلية للاستعمار: ينطلق مالك بن نبي في مشروعه الفكري من إشكالية مركزية عبّر عنها بسؤال فلسفي عميق: هل الاستعمار سبب تخلفنا أم نتيجة له؟ هذا التساؤل لم يكن مجرد طرح سياسي، بل تحليل أنثروبولوجي لحالة الانحطاط الحضاري التي عرفها العالم الإسلامي. فبن نبي يرى أن الاستعمار الخارجي لا يمكنه أن يفرض هيمنته إلا على مجتمع فقد مناعته الحضارية، أي قابليته للابتكار والإنتاج والعمل المنظم. ومن هنا صاغ مفهومه الشهير "القابلية للاستعمار"، ليعبّر عن الاستعداد النفسي والاجتماعي لقبول السيطرة (نبي، 1986) فهو لا يعزو التخلف إلى عوامل خارجية فحسب، بل إلى خلل داخلي في الإنسان المسلم الذي تعطلت فاعليته وتشوّه وعيه التاريخي. الحضارة، عنده، ليست منتجات مادية فقط، بل تفاعل بين الإنسان والتراب والزمن في إطار منظومة قيمية فاعلة. بهذا المعنى يصبح التغيير عند بن نبي عملية تحرر داخلي قبل أن تكون مقاومة خارجية، تبدأ من إصلاح الفكرة الدينية وتوجيهها نحو العمل. ومن ثمّ، فمشروعه الفلسفي يدعو إلى نهضة شاملة قوامها الإنسان القادر على استعادة وعيه بذاته ودوره التاريخي (مالك، وجهة العالم الاسلامي، 1992).

2- إشكالية الإنسان كعنصر أساسي في النهضة: يطرح مالك بن نبي سؤالاً محورياً في فلسفة التغيير هنا هو: كيف نبني إنساناً صالحاً للتغيير؟ هذا السؤال يمثل جوهر مشروعه الحضاري، إذ يرى أن النهضة لا تبدأ من الاقتصاد أو السياسة، بل من إعادة بناء الإنسان باعتباره العنصر المحرك للتاريخ. ف"الإنسان هو محور التفاعل بين التراب والوقت" (مالك، شروط النهضة، 1986)، لأن دون إنسان واعٍ بقدراته ومسؤولياته، يُهدر الزمن ويضيع التراب، أي تضيع شروط قيام الحضارة. يؤكد بن نبي أن بناء الإنسان الصالح للتغيير يقتضي تحرير فكره من عقدة الاستعمار ومن سلبية التاريخ، وغرس وعي جديد يجمع بين الإيمان والفعل. فالإصلاح عنده ليس وعظاً أخلاقياً، بل تحولاً أنطولوجياً في علاقة الإنسان بذاته وبالعالم.

كما يرى أن التربية هي الأداة الأساسية لصناعة هذا الإنسان، لأنها تُكوّن الوعي وتمنح الفرد القدرة على المبادرة والمسؤولية. وبذلك، يصبح التغيير في فكر بن نبي عملية إنسانية متكاملة، تستهدف بناء الذات قبل بناء

المؤسسات، لأن كل مشروع حضاري، في النهاية، هو انعكاس لنوعية الإنسان الذي يحمله. (مالك، ميلاد مجتمع، 1984).

3- إشكالية غياب الفعالية في الفكر الإسلامي: يرى مالك بن نبي أن أحد أهم مظاهر الأزمة الحضارية في العالم الإسلامي هو تحول الفكر إلى مجرد تنظير عقيم لا ينعكس في الواقع الاجتماعي والسياسي، بل يعيش في دائرة التجريد والانفعال بدل الفعل. فالفكرة فقدت دورها كقوة محرّكة للتاريخ، وأصبحت رمزاً ثقافياً لا طاقة حضارية. من هنا يطرح سؤاله الجوهرى: كيف نحول الفكرة إلى طاقة حضارية؟ أي كيف نعيد للفكر فعاليته وقدرته على توجيه الفعل؟ (مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1956). يعتبر بن نبي أن الفكرة لا تصبح حضارية إلا إذا تحولت من إدراك ذهني إلى سلوك اجتماعي، أي حين تمتزج بالقيم وتصبح إطاراً للعمل لا موضوعاً للتأمل. الفكر الفعّال عنده هو الذي يخلق شبكة من المعاني والروابط بين الإنسان والتّراب والوقت، فتولد منه الحضارة كما تولد الحركة من الطاقة، أما الفكر الذي يظل نظرياً فهو علامة على الانفصال بين الثقافة والحياة، لذلك دعا بن نبي إلى تجديد الفكر الإسلامي على أسس عملية، تربط بين الإيمان والعقل والعمل، لتتحول الفكرة إلى قوة بنائية قادرة على إنتاج المعنى والتاريخ.

4- إشكالية العلاقة بين الفكرة الدينية والحضارة: ينطلق مالك بن نبي من سؤال فلسفي عميق: كيف كانت الفكرة الدينية عبر التاريخ محرّكاً للحضارات؟ هذا التساؤل عنده ليس تأملاً لاهوتياً، بل تحليلاً سوسولوجياً للدين كقوة تاريخية تُنظّم الوعي وتوحّد الإرادة الجماعية. وهنا يرى أن الفكرة الدينية كانت دائماً الشرارة الأولى في ميلاد كل حضارة، لأنها تمنح الإنسان معنى لوجوده وتحدد غايته، مما يوجّه طاقته نحو البناء لا الفوضى. الفكرة الدينية، بحسبه، تُحدث ثورة في النفس البشرية، فتنتقل الإنسان من مرحلة الغريزة إلى مرحلة الفعل الهادف، وتمنحه إحساساً بالمسؤولية التاريخية. (مالك، وجهة العالم الإسلامي، 1992). وهي بذلك تخلق نظاماً قيمياً يجعل الإنسان قادراً على تسخير التراب والوقت في سبيل هدف أسمى. فالحضارة الإسلامية لم تنطلق من فائض مادي، بل من تحول روحي عميق فجّره الإسلام في نفوس العرب، فوحّد إرادتهم وغيّر نظرتهم للوجود. لذا فالفكرة الدينية عند بن نبي هي الروح المحركة للتاريخ، وإذا ماتت أو فقدت فعاليتها، دخلت الأمة مرحلة الجمود والانحطاط.

5- إشكالية فقدان شبكة القيم: يرى مالك بن نبي أن أزمة المسلمين ليست أزمة موارد مادية أو اقتصادية، بل أزمة أعمق تتعلق بغياب القيم والمعايير المنظمة للعلاقات بين الإنسان والزمان والمكان. ففي تحليله للحضارة، يربط بن نبي بين ثلاثة عناصر أساسية: الإنسان، التراب، والوقت، مؤكداً أن هذه العناصر لا تثمر إلا إذا ربطتها شبكة من القيم الفاعلة التي تمنحها الاتجاه والمعنى. فالمشكلة ليست في نقص الإمكانيات، بل في اختلال البنية الأخلاقية والفكرية التي تحكم سلوك الإنسان في التاريخ. ويؤكد بن نبي أن القيم هي التي تحول المادة الخام إلى حضارة، لأنها تحدد كيفية استثمار الموارد وتوجيهها نحو غايات إنسانية راقية. أما حين تنفصل القيم عن العمل، يصبح التقدم المادي خادماً للعبث والفوضى لا للتنمية. (مالك، مشكلة الثقافة، 1970) ولهذا، فإن انهيار الحضارات لا يحدث بسبب الفقر أو الجهل، بل حين تفقد المجتمعات مرجعيتها الأخلاقية والروحية. فالقيم، في فكر بن نبي، تمثل البنية التحتية للنهضة، إذ تنظم علاقة الإنسان بزمانه ومكانه، وتجعل التقدم المادي أداة لخدمة المعنى لا بديلاً عنه.

6- إشكالية المفاهيم المغلوطة: يتوقف مالك بن نبي عند ظاهرة فكرية خطيرة تتمثل في تفرغ المفاهيم الكبرى من مضمونها الحضاري، مثل مفاهيم الحرية، التقدم، والحضارة، التي أصبحت تُستعمل في الخطاب

الإسلامي بطريقة سطحية أو مشوهة لا تعبّر عن عمقها الفلسفي والتاريخي. فسأل: كيف يمكن أن نبني وعياً حضارياً بأدوات فكرية مستعارة أو مفرغة من المعنى؟

يرى أن المفهوم حين يفقد جذوره القيمية ويتحوّل إلى شعار، يصبح عائقاً للفكر لا وسيلة للتغيير. من هنا دعا بن نبي إلى ضرورة تجديد المفاهيم عبر إعادة شحنها بدلالاتها الأصيلة، بحيث تصبح أدوات فعالة للفكر والعمل معاً. فالتجديد عنده لا يعني تبني مفاهيم الغرب كما هي، بل تحويلها إلى مفاهيم فاعلة داخل النسق الحضاري الإسلامي (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، (مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1986) ويؤكد أن النهضة الفكرية لا تتحقق إلا حين يستعيد المسلم قدرته على توليد المفاهيم لا استهلاكها، لأن المفهوم هو أداة بناء الوعي ووسيلة تنظيم السلوك الجمعي. لذا فإن تجديد المفاهيم في نظره هو الخطوة الأولى نحو تحرير الفكر من التبعية، وإعادة تأسيس العقل المسلم على أسس نقدية وحضارية.

7- إشكالية انفصال النخبة عن المجتمع: يرى مالك بن نبي أن من أبرز معوقات النهضة في العالم الإسلامي انفصال النخبة المثقفة عن المجتمع، بحيث يعيش كثير من المثقفين في عزلة فكرية ونخبوية تجعلهم عاجزين عن التأثير الفعلي في واقع الناس. فالفكر، في نظره، لا يؤدي دوره الحضاري إلا حين يتحول إلى وعي اجتماعي متداول يلامس هموم الأمة ويترجم إلى سلوك عملي، لكن المثقف المسلم، كما يلاحظ، غالباً ما يظل حبيس التنظير أو مقلداً لثقافة الآخر، فيفقد صلة الوجدان الجمعي، ويصبح فكره بلا جذور ولا امتداد اجتماعي (مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1986). ويحذر بن نبي من هذا الانفصال، لأن الثقافة التي لا تجد طريقها إلى الشعب تموت في الكتب ولا تصنع التغيير فالمثقف الحقيقي عنده هو الذي يجمع بين الفكرة والعمل، بين التأمل والمشاركة، ويكون جسراً يربط بين الفكر والنظام الاجتماعي. ولهذا دعا إلى تكوين "نخبة رسالية قادرة على توجيه وعي الجماهير، لا نخبة استعراضية تعيش في برج عاجي" (مالك، شروط النهضة، 1986). فالتغيير عند بن نبي لا يمكن أن يتحقق إلا حين يصبح الفكر قوة اجتماعية حية، تُترجم إلى حركة تُعيد للمجتمع توازنه

ثالثاً: مقارنة بين الفيلسوفين:

يتفق كلٌّ من محمد إقبال ومالك بن نبي على أنّ التغيير هو ضرورة وجودية وحضارية تستهدف بعث الإنسان المسلم من حالة الخمول إلى الفعل التاريخي الخلاق. كلاهما انطلق من نقد الواقع الإسلامي المتردي، لكنهما قدّما مشروعين مختلفين في المنطلق والمنهج. فإقبال انشغل بالأساس ببناء الذات الروحية والفكرية للإنسان المسلم، بينما ركّز بن نبي على تشخيص العوامل الاجتماعية والحضارية التي تُنتج النهضة أو الانحطاط. يشترك المفكران في الإيمان بأن التغيير يبدأ من الداخل، من الإنسان نفسه، لا من الظروف الخارجية؛ فالفكرة هي التي تصنع التاريخ، وليست المادة أو القوة وحدها. كما يلتقيان في اعتبار الدين طاقة إبداعية حيّة لا تُخترل في الطقوس، بل هي روح فاعلة تُوجّه الوعي والفعل نحو التجديد.

غير أن اختلافهما يظهر في زاوية النظر: فإقبال ينهض بفلسفة روحية أخلاقية تستمد من "الأنا الخالقة" و"الخُودي" مبدأ التغيير، أي أن نهضة الأمة تنبع من إحياء الإرادة الفردية والحرية الداخلية للإنسان المؤمن، الذي يعيد تشكيل مصيره وفقاً لإرادة الله. أما بن نبي، فيبني منظوره على "القابلية للحضارة"، أي تجاوز حالة "القابلية للاستعمار" عبر إصلاح الفكر وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على أساس الفعالية والانسجام. فالتغيير عنده عملية تاريخية موضوعية تبدأ من إصلاح الفكرة لتتحول إلى سلوك جماعي.

إقبال يربط التغيير بالعشق والوعي الكوني وبالتوازن بين القلب والعقل، بينما بن نبي يربطه بالعقل المنظم والمنظومة القيمية التي تضبط علاقة الإنسان بالتراب والوقت. الأول يؤسس فلسفة "الذات الفاعلة" ذات الطابع الوجودي، والثاني يؤسس فلسفة "الفكرة الموجهة" ذات الطابع السوسيولوجي. كلاهما يرى في الدين منبعاً للحياة التاريخية، لكن إقبال يركز على التجربة الفردية للروح كمصدر للتجديد، وبن نبي على البنية الفكرية والاجتماعية كشرط للنهضة. وفي النهاية، يلتقيان عند رؤية واحدة: أن أزمة المسلمين ليست أزمة نصّ ديني بل أزمة وعي حضاري، وأن التغيير الحقيقي لا يتم إلا حين يتصالح الإنسان مع ذاته، ويفعل قيم الإيمان والعقل معاً في مشروع نهضوي متكامل يجمع بين الروح والفعل، بين الفكرة والعمل، بين الإنسان والمجتمع والتاريخ.

رابعاً: خاتمة

تتجلى فلسفة التغيير عند كلّ من محمد إقبال ومالك بن نبي في كونها مشروعاً نهضوياً متكاملًا، يجمع بين البعد الروحي والأخلاقي من جهة، والبعد الاجتماعي والحضاري من جهة أخرى. كلا المفكرين انطلق من تشخيص دقيق لأزمة الإنسان المسلم، معتبرين أن جذور التخلف لا تكمن في الدين ذاته، بل في الجمود الفكري وفقدان روح الاجتهاد والإبداع. فإقبال ركّز على إحياء "الذات الخلاقة" كمنطلق للتغيير الداخلي الذي يقود إلى النهضة، بينما جعل بن نبي من "الإنسان الفاعل والفكرة الموجهة" الأساس الذي تُبنى عليه دورة الحضارة.

وقد توصّل البحث إلى جملة من النتائج أبرزها:

1. أنّ التغيير في الفكرين الإقبالي والنبوي يبدأ من الإنسان، باعتباره محور التاريخ وصانع الحضارة.
2. أنّ التجديد الديني والفكري لا يتحقق إلا من خلال توازن بين الإيمان والعقل، والروح والعمل، مما يضمن نهضةً متجدّرة في القيم ومتفتّحة على العصر.
3. أنّ الجمود الفكري والانفصال بين الفكر والواقع يمثلان العقبة الكبرى أمام أي مشروع نهضوي حقيقي.
4. أنّ الفكرة الدينية، حين تُفهم في بعدها الحضاري، تُعيد للإنسان وعيه بذاته ومسؤوليته في الاستخلاف والبناء.

وبناءً على ما سبق، يمكن اقتراح جملة من التوصيات:

- ضرورة إعادة قراءة التراث الإسلامي بعقلية نقدية تجديدية توازن بين الأصالة والمعاصرة.
- الاستثمار في التربية والفكر كمدخل أساسي لبناء الإنسان القادر على الفعل الحضاري.
- إحياء مفهوم "الاجتهاد الحضاري" ليشمل مجالات الفكر والعلم والسياسة والثقافة، لا الفقه وحده.
- العمل على بناء مشروع فكري متكامل يستلهم من فلسفتي إقبال وبن نبي رؤية عملية للنهضة، قوامها الإنسان الحرّ المؤمن المبدع.

وبذلك، يُمكن القول إن فلسفة التغيير لدى المفكرين تمثل دعوة متجددة إلى استعادة فاعلية الروح الإسلامية في التاريخ، عبر بعث الوعي بالذات والإيمان بالقدرة على صنع المصير، لتظلّ الأمة حاملة لرسالتها الخالدة في بناء الحضارة والإنسان.

5. قائمة المراجع:

- اقبال محمد. (1968). تجديد التفكير الديني في الاسلام. (عباس محمود، المترجمون) بيروت: دار الكتاب العربي.
- بن نبي مالك. (1956). مشكلة الافكار في العالم الاسلامي. القاهرة: دار الفكر العربي.
- بن نبي مالك. (1970). مشكلة الثقافة. القاهرة: دار الفكر العربي.
- بن نبي مالك. (1984). ميلاد مجتمع. دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك. (1986). شروط النهضة. دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك. (1986). شروط النهضة. دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك. (1986). مشكلة الافكار في العالم الاسلامي. القاهرة: دار الفكر العربي.
- بن نبي مالك. (1986). مشكلة الافكار في العالم الاسلامي. القاهرة: دار الفكر العربي.
- بن نبي مالك. (1992). وجهة العالم الاسلامي. دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك. (1992). وجهة العالم الاسلامي. دمشق: دار الفكر.
- بوعزيزي محمد العربي. (1999). محمد اقبال : فكره الديني والفلسفي. دمشق: دار الفكر.
- بوعزيزي محمد العربي. (1999). محمد اقبال : فكره الديني والفلسفي. دمشق: دار الفكر.
- بوعزيزي محمد العربي. (1999). محمد اقبال : فكره الديني والفلسفي. دمشق: دار الفكر.
- بوعزيزي محمد العربي. (1999). محمد اقبال : فكره الديني والفلسفي. دمشق: دار الفكر.
- راهيمي سليمة. (2025). التجديد الديني في الفكر الاسلامي بين الاصاله والعصرنة (محمد اقبال نموذجاً) (المجلد 10). الجزائر، الجزائر: مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الانسانية.
- مالك بن نبي. (1986). شروط النهضة. دمشق: دار الفكر.
- محمد اقبال. (1955). اسرار الذات. (عبد الوهاب عزام، المترجمون) القاهرة: دار المعارف.
- محمد اقبال. (1958). ضرب الكلية. (عبد الوهاب عزام، المترجمون) القاهرة: دار المعارف.
- محمد اقبال. (1968). تجديد التفكير الديني في الاسلام. (عباس محمود، المترجمون) بيروت: دار الكتاب العربي.
- محمد اقبال. (1968). تجديد التفكير الديني في الاسلام. (عباس محمود، المترجمون) بيروت: دار الكتاب العربي.
- محمد اقبال. (1968). تجديد التفكير الديني في الاسلام. القاهرة: دار المعارف.